المقدمة

البناء الفكري: مفهومه ومستوياته وخرائطه

مَنْ هم هؤلاء الذين يتحدثون عن الفكر هذه الأيام؟ ولماذا يتحدثون؟ وما الذي يقصدونه بالفكر؟ وما موقع الفكر بين مفاهيم العلم، والفقه، والثقافة، والفلسفة، والأدب؟ وأين نجد الفكر في برامج التعليم المدرسي والجامعي؟ وكيف نفهم تطور مفهوم الفكر في التراث الإسلامي؟ وما البرنامج الذي يمكن تقديمه لمن يرغب في أن ينمو بناؤه الفكري حتى يصبح مفكراً؟! وكيف يمكن أن نبني اختباراً نقيس به مستوى البناء الفكري لفردٍ أو فئة أو مجتمع؟ وما علاقة الفكر باللغة؟ وما المقصود بالمدارس الفكرية؟

هذه الأسئلة وأمثالُها، تتوارد إلى الخاطر عند ملاحظة التزايد الملحوظ في عدد الباحثين عن "كتابات فكرية" في أوساط الشباب المسلم في العقدين الأخيرين من الزمن، ويبدو أنَّ من دوافع هذا البحث عند هؤلاء الشباب، أنَّهم أخذوا يضيقون ذرعاً بالتوجُّه العلمي – الفقهي، أو التوجُّه الثقافي – الحركي، اللذيْن غلبا على جهود قطاعات واسعة من الشباب في الحقبة التي عُرفت بالصحوة الإسلامية في الربع الأخير من القرن العشرين. وهذه الحقبة نفسُها، هي كذلك الحقبة التي ظهر فيها عدد من المشاريع الفكرية في الدائرة الإسلامية، ولم يُعْرَف أصحابُها في المؤسسات التقليدية للعلوم الإسلامية، ولم يعرفوا كذلك في الدوائر التقليدية للتنظيمات والحركات الإسلامية.

هل كان سعيُ الشباب في العقدين الأخيرين في البحث عن "كتابات فكرية" إسلامية مساوقاً كذلك للتوجهات الملحوظة لتزايد الاهتمام ببرامج "التنمية البشرية"؟ ومِن ثَمَّ لُمِست الحاجةُ إلى ضرورة تضمين هذه البرامج مادة في "التنمية الفكرية"؟

أليس مما يَلفِتُ انتباهَ المتابع للشأن الفكري في العالم العربي أنَّ نسبةً ملحوظةً من الشباب في هذا العالم قد أخذوا يضيقون ذرعاً بالواقع القائم في بلادهم؟ وهو الواقع الذي يتصف باستئثار النخب السياسية والدينية والإعلامية في التأثير على الحالة الفكرية العامة، بصورة تكرِّس أزمة الأمة، وتعمِّق حالة اليأس والإحباط، عن طريق الاستمرار في الخلط بين ثنائيات التراث والحداثة، والاستقلال والتبعية، والتخلُّف والتقدُّم، والهُوية والعولمة، والدينية والمدنية، وغيرها من الثنائيات!

ليس من اليسير تقديم إجابات محددة عن الأسئلة الكثيرة التي ترد إلى الخاطر في مسألة الفكر، ومع ذلك فإنّه يمكن القول إنّ هذا الشباب قد ملّ حالة التيه التي تعاني منها الأمة منذ القرن التاسع عشر، ونخبُها الفكرية لا تزال تعيد إنتاج سؤال النهضة، دون أن تَلُوح في الأفق بوادر الإجابة العملية عن هذا السؤال.

وفي الوقت نفسه ظهرت في ربع القرن الماضي محاولات عدة لتقديم ألوان من التعبئة النفسية، تقدمها مؤسسات ومراكز في صورة برامج تدريبية، على شاكلة ما ظهر منها قبل ذلك في الغرب، مما عُرف ببرامج التنمية البشرية. وقد اختارت بعض هذه المؤسسات قضايا النهضة، أو البناء الحضاري، أو التربية الفكرية، أو مناهج التفكير... إلخ، لكي يتمحور عمل برنامج المؤسسة وعملها حول بث الوعي بالقضية، وغرس الأمل في إمكانية تحقيقها، ومن ثم الاستعداد في السير نحوها. وأصبح موضوع البناء الفكري مطلباً واضحاً للشباب الطامح إلى تغيير الواقع القائم، وحاولت المراكز والمعاهد التدريبية التي انتشرت بسرعة ملحوظة في أرجاء العالم العربي تقديم برامج أكاديمية ودورات تدريبية في البناء الفكري.

ولا نعدم أن نجد ضمن هذه الحركة جهوداً مخلصة، تقوم بها شخصيات عَدَّت مسألةَ النهوض الحضاري للأمة في إطارها الإسلامي رسالَتَها في حياتها،

واجتهدت في صياغة برامج تدريبية لتحقيق هذه الرسالة، ومع ذلك فإنَّ البعد التجاري الاستثماري الذي تعتمده مؤسسات عدة أخرى يكاد يطغى على أهداف كثير من هذه المؤسسات وعلى البرامج التي تقدمها.

يحاول هذا الكتاب تقديم فكرة مكثفة للغاية عن موضوع البناء الفكري، ربما تصلح أساساً لتكوين مدخل إلى الموضوع، أو رسم خريطة للعناصر الرئيسة فيه. وسوف يجد القارئ لهذا الكتاب أن بعض المفاهيم أو بعض الأفكار قد استوعبَتْها كتب كثيرة العدد، وكبيرة الحجم، ومتعددة الأمثلة، ودقيقة التفاصيل؛ بينما يلاحظ القارئ أنّ بعض المفاهيم أو بعض الأفكار عرضت في صورة إشارات عابرة، لكنها مهمة، لا سيّما إذا لم يتيسر للقارئ الحصول على مراجع للاستزادة من فهمها وتطويرها، وبذلك نكون أمام فرصة متاحة لتحديد موضوعات تحتاج إلى التفكير والبحث والدراسة، ونكون أمام أمثلة متعددة على فرص حقيقية لممارسة البناء الفكري المنشود. ولعل هذا هو شأن الكتابة في أي موضوع، لا سيّما عندما تكون الكتابة عن عمليات التفكير، وجهود بناء الفكر.

لقد كان من منهجيتنا في هذا الكتاب عدم الحرص على البحث عن تعريف محدد "جامع مانع" لأيٍّ من المفاهيم التي تعرضنا لها. وآثرنا في المقابل أن نعالج معاني المفهوم في سياق الحقل الدلالي الذي ينتسب إليه، وذلك ليكون همُّ القارئ ليس محصوراً في تذكُّر نصّ محدد للمعنى، وإنما يتَّسع همُّه لاكتساب قدرٍ من الفهم والاستيعاب، والتعبير عن هذا الفهم والاستيعاب بلغةٍ حرة مفتوحة على التنوع في الصياغة اللغوية والتنوع في زوايا النظر، وربما التنوع في صور الانفعال الوجداني.

وكان من منهجيتنا كذلك أننا تعمدنا عدم الإكثار من ذكر الأمثلة على أسماء الأشخاص أو الكُتَّاب أو المؤسسات والجماعات، حتى عندما يلحُّ المقام على التمثيل للموضوع، لأنَّنا تركنا هذه المهمة للقارئ، ليمارس قدراً من

البناء الفكري في هذه المواقف، فالإكثار من ذكر الأمثلة اقتحام للبنية الفكرية للقارئ لملء فراغات هذه البنية بما يريد الكاتب، ونحن نريد للقارئ أن يقوم بعملية البناء هذه، فيقوم بعرض ما يعلمه من الأمثلة ذات الصلة المباشرة أو القريبة، ثم المقارنة والموازنة بينها، حتى يقع المثال في موقعه المناسب. وقد لا يجد المثالَ المناسب حاضراً في الذهن، أو قد لا يكون عنصراً من عناصر البناء الفكري الراهن عنده، فيكون ذلك دعوةً للتفكُّر، وفرصة لتوظيف الوسائل المناسبة لاستكمال البناء الفكري المنشود.(١)

وقد يكون من المناسب التنبيه إلى أننا ربما أسرفنا في الإحالة إلى مراجع ومؤلفين، إما لتوثيق مصدر الفكرة، وفي هذه الحالات، كان لا بد من الإشارة إلى مكان الفكرة في المرجع؛ أي الصفحة أو الصفحات، أو لغرض الاستزادة من المعرفة عن الموضوع، فتكون الإحالة إلى المرجع في مجمله. وفي الحالتين فإننا ندعو القارئ الكريم إلى الاطلاع عن هذه المراجع بقدر من التنبّه إلى ما قد يكون فيها من مشكلات، والقراءة بطريقة نقدية، ففي أي من هذه المراجع بعض الفائدة، ولكننا قلما نجد مرجعاً يخلو من مشكلات، لا سيّما عدم الضبط والتحديد في استخدام المصطلحات، أو عدم الدقة في استيعاب المادة في سياق المجال المعرفي الذي تنتسب إليه، وبخاصة عندما لا يكون المؤلف متخصصاً في علم النفس أو الفلسفة، ويقتبس من كتب علم النفس أو الفلسفة

(١) ثمة سبب آخر يمكن أن يرد على الخاطر في المقام الذي يحسن فيه التجريد والتعميم بدلاً من ذكر أسماء الأشخاص والمؤسسات، تمثيلاً على الفكرة، لا سيّما حين يكون الحديث في عالم الأفكار. ونتذكر في هذا المقام المقولة المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتعد من قواعد توثيق الأفكار "الرجال يعرفون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال"، كما نتذكر مقولة ابن حزم: "فاغفر لي الكناية عن الأسماء، فهي إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما نحفظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً، وبحسبي أن أسمّي من لا ضرر في تسميته، ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره، إما لإشهار لا يغني عن الطي وترك التبيين، وإما لرضى من المخبر عنه بظهور خبره، وقلة إنكار منه لنقله." انظر في ذلك:

– ابن حزم، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ). **طوق الحمامة في الألفة والآلاف**، عمان: دار الإسراء، ٢٠٠٥م، ص ١٣.

أفكاراً لا تخلو من التناقض فيما بينها، أو التناقض مع الفكرة الكلية، أو رؤية العالم التي يحاول المؤلف أن ينطلق منها.

إن أصل هذا الكتاب مجموعة من الأفكار التي طُلب إليّ عرضها -عفو الخاطر- على طلبة أحد مراكز التدريب الفكري. ولكنها كما يبدو أثارت اهتمام مجموعات أخرى من المهتمين ببرامج التنمية البشرية وتمكين الشباب، ولذلك تكرَّر عرضُها عدة مرات، وكانت هذه الأفكار تتبلور مرةً بعد مرة، وتتزايد الحاجة إلى تدوينها، حتى وصلت إلى هذا الحد، الذي نرجو أن يكون في نشره بعض الفائدة. ومع ذلك فإن إحساس المؤلف -وربما كل مؤلف- هو الإحساس ذاته الذي عبر عنه أستاذ البلغاء، عبد الرحيم البيساني العسقلاني (المتوفى عام ٥٩٦هـ)، المعروف باسم "القاضي الفاضل"، وهو من مستشاري صلاح الدين الأيوبي. وقد كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني، وكان بينهما صداقة، معتذراً عن كلام استدركه عليه: "إنَّه قد وقع لي شيء، وما أدري أوقع لك أم لا؟ وها أنا أخبرك به، وذلك أنِّي رأيت أنَّه لا يكتب إنسانٌ كتابه في يومه، إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يُستحسن، ولو قدُم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جُلَّة البشر."[1]

لقد قرأ مادة هذا الكتاب أكثرُ من شخصٍ، وقدّمَ كلُّ واحدٍ منهم ملحوظاتٍ أسهمت في الانتقال بالمادة إلى هذا المستوى. كذلك قدمت المادة في عدد من المحاضرات والحلقات النقاشية، وفي كل مرة كانت مناقشات وأسئلة الحضور تغني المادة وتزيد من بلورة أفكارها. ولذلك يستحق جميع هؤلاء الشكر الجزيل. على أنني أقدم شكراً خاصًّا لعدد من الزملاء ومنهم الدكتور

(١) تكررت نسبة هذا القول للعماد الأصفهاني. وربما كان مصدر ذلك أن محقق كتاب "مُعجم الأدباء" لياقوت الحمويّ، نسب هذه العبارة للأصفهاني، ووضعها على غلاف كل جزء من أجزاء الكتاب، ثم تداولَها النَّاس، وكثير منهم لا يزالون يتداولونها على هذا الأساس. انظر في تحقيق المسألة:
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت ١٠٦٧هـ). **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ت.)، ج١، ص١٨.

رائد عكاشة، والدكتور عاطف فضل، والدكتور خالد الصمدي، والدكتور عبد الرحمن النقيب، والدكتور عبد الله عطا، الذين قدموا ملحوظات وأسئلة مفيدة، والأستاذ إيصال حوامدة الذي كان سريعاً في توفير المراجع المطلوبة، حيثما ظهرت حاجتي إلى واحد منها.

أسأل الله أن ينفعني بما قدمت ويغفر لي ما به قصرت، ويعين بعض القراء على إدراك أهمية موضوع الكتاب، والسعي في تطوير أفكاره.

والحمد لله رب العالمين.

opeikan.com

تمرين تمهيدي

هذا الكتاب يختص بالفكر. ويحلو لفئات من الناس أن يجعلوا الفكر وصفاً لمفردات عدة: مثل العطاء الفكري، والغزو الفكري، والمعالجة الفكرية. حاول عمل ما يأتي:

١- فكر في عبارات مماثلة سمعتها، أو قرأتها، أو يمكنك الآن أن تصوغها. اكتب أكبر عدد ممكن من العبارات. ليكن هدفك الوصول إلى مائة عبارة.

٢- صنف العبارات التي كتبتها وفق عدد من المعايير

أ- معيار القيمة: محمودة (مرغوبة)، أو مذمومة (مرذولة)

ب- معيار الوضوح: ذات دلالة واضحة أو غامضة

ت- معيار الاستعمال: كثيراً أو قليلاً

ث- ...إلخ. فكر في معايير أخرى، واستعملها في مزيد من طرق التصنيف

٣- ما أهمية هذا التمرين؟

٤- بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب، تستطيع أن تعود إلى هذا التمرين وتكتشف عدد العبارات التي لم ترد الإشارة إليها في الكتاب.

obeikan.com

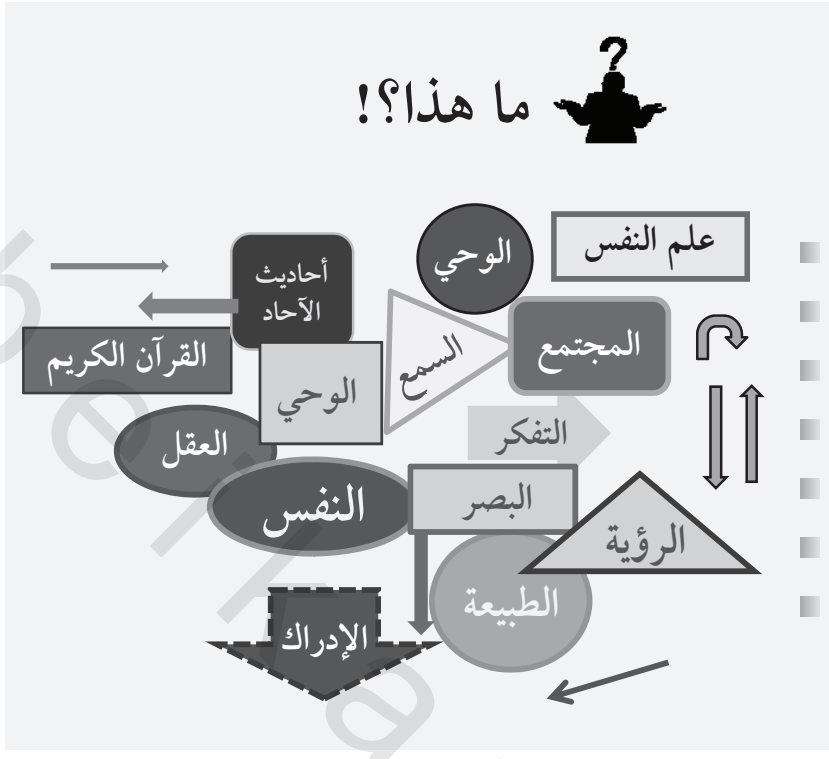
ما هذا؟!
علم النفس
الوحي
أحاديث الآحاد
القرآن الكريم
الوحي
السمع
المجتمع
العقل
التفكر
النفس
البصر
الرؤية
الطبيعة
الإدراك

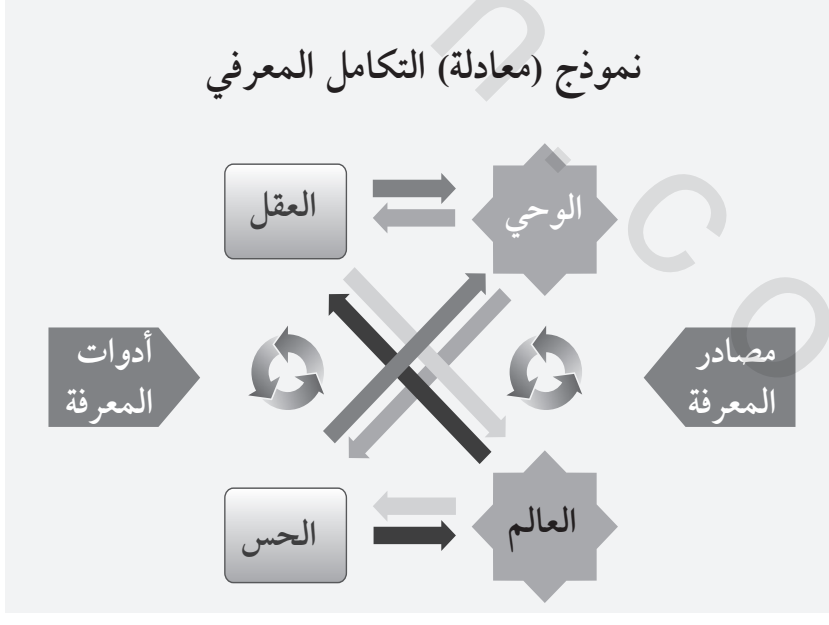
نموذج (معادلة) التكامل المعرفي
العقل
الوحي
أدوات المعرفة
مصادر المعرفة
الحس
العالم

obeikan.com